إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م

بحوث الملتقى الدولي السابع
المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي
في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 – 1962م

بتاريخ: 05 و06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق لـ 04 و05 جوان 2022

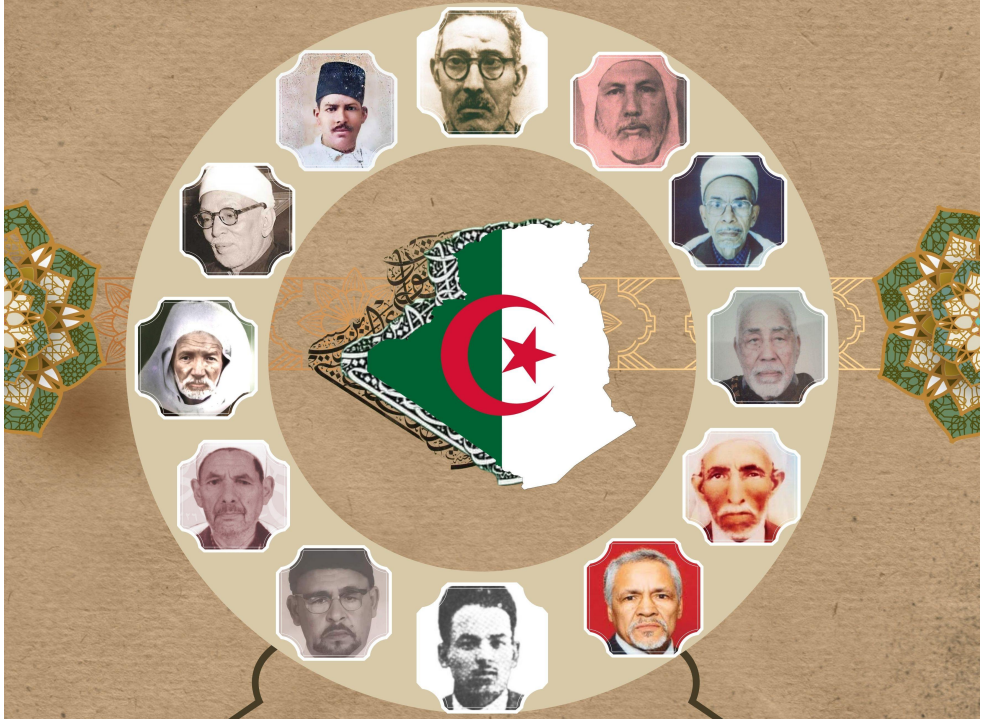

جهود علماء الفكر الإصلاحي
في الجنوب الشرقي الجزائري في مواجهة التنصير
ـ الشيخ محمد السعيد الزاهري أنموذجا ـ

Efforts of reformist thought scholars in southeastern Algeria in the face of Christianization
-Sheikh Muhammad Al-Saeed Al-Zahiri as a model-

د/ علي بن زينب
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
Benzineb.ali@hotmail.com

أ/ جمال عرقوب
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
Djamel-medine@hotmail.com

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى إبراز جهود أعلام الجنوب الشرقي في الحفاظ على الهوية الإسلامية العربية للجزائريين، وتقريب جهود أحد رموز الحركة الإصلاحية في منطقة الميزاب، ألا وهو الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- في مواجهة حملات التَّنصير، ومحاولات طمس معالم الهوية الإسلامية عند الشعب الجزائري، وذلك من خلال التعريف بحياته العلمية والعملية، والوقوف على الأساليب والسياسات التنصيرية من منظوره الإصلاحي؛ حيث يرتكز بحثنا على نشاطه المقاوم لحملات التبشير الفرنسي.

وكان من أبرز نتائج هذه الدراسة أنَّ ترجمة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- لا تختلف كثيراً عن تراجم أهل الإصلاح، وأرباب الفكر والثقافة الجزائريين إبَّان الاحتلال الفرنسي، وأنَّ الحركة الإصلاحية بمنطقة الزيبان- كغيرها من الحركات الإصلاحية المحلية - عملت على معارضة السياسة الاستعمارية التي حاربت الشخصية الجزائرية ومقوماتها اللغوية والدينية والتاريخية، وأنَّ الاستعمار والتَّنصير صنوان يعضِّد أحدهما الآخر، وهدفهما واحدٌ هو إفراغ الشخصية المسلمة عن مضمونها لإحلال مضمون الشخصية المستعمرة محلها، وقد تمثلت جهود الشيخ محمد في مواجهة التنصير من خلال التنديد به على صفحات مجلات جمعية العلماء المسلمين، وتدريس أولاد المسلمين مجانا قصد صرفهم عن مراكز التعليم الفرنسية، وكشف شبهات المنصرين، وبيان أخطار التبشير على الإنسان الجزائري، وانتقاده لشيوخ الطرق الصوفية المتآمرين مع دعاة التنصير، ومحاربة الفرنسة والتغريب.

الكلمات المفتاحية: محمد السعيد الزاهري؛ الإصلاح؛ التنصير؛ المواجهة؛ الجهود.

Abstract:
This study aims to highlight the efforts of the flags of the southeast in preserving the Islamic Arab identity of the Algerians, and to approximate the efforts of one of the symbols of the reform movement in the Mizab

region, namely Sheikh Muhammad Al-Saeed Al-Zahiri - may God have mercy on him - in the face of Christianization campaigns, and attempts to obliterate the features of the Islamic identity of the Algerian people Through introducing his scientific and practical life, and examining the missionary methods and policies from his reformist perspective, our research is based on his anti-French missionary activities.
One of the most prominent results of this study was that the translation of Sheikh Muhammad Al-Saeed Al-Zahiri - may God have mercy on him - does not differ much from the translations of the reform people, and the Algerian leaders of thought and culture during the French occupation, and that the reform movement in the Zaiban region, like other local reform movements, worked to oppose the colonial policy that fought the personality The Algerian and its linguistic, religious and historical components, and that colonialism and Christianization are closely related to each other, and their goal is one and the same, which is to empty the Muslim personality of its content to replace it with the content of the colonial personality. Teaching Muslim children for free in order to distract them from French education centers, exposing the suspicions of the missionaries, explaining the dangers of evangelization to the Algerian person, criticizing the sheikhs of the Sufi orders conspiring with the advocates of Christianization, and fighting the French and Westernization.
Keywords: Mohammed Al-Saeed Al-Zahiri; repair; Christianization; confrontation; efforts.

1. مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، ونصلي ونسلم على خير خلقه وخاتم رسله وأكرم أنبيائه، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه، ومن سار على طريقه، واقتفى أثره،واتبع سنته، وحمل منهجه إلى يوم الدين. أما بعد:

فإنَّ الإصلاح رسالةٌ شريفةٌ، حملها على مرِّ التاريخ الإنساني الرِّجال الصَّادقون، والعلماء الربانيون، وقد خرَّجت الأمة الإسلامية مصلحين كانوا في المستوى الإسلامي اللائق بهم؛ علماً وعملاً، فهماً وتطبيقاً، فبلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمَّة، وجاهدوا في الله حتى أتاهم اليقين، وكانوا على خطى النُّبوَّة يتَّبعون هديها، ويلتزمون نهجها، ويقتفون أثرها. فقاموا بالإصلاح من خلال إحياء القيم الإسلامية، وتجديد العمل بالتعاليم القرآنية والنَّبوية، وتنقية المفاهيم مما علق بها من شوائب، وقاموا بدفع المفتريات، ورد الشُّبهات، وتربية الجيل المسلم على هدى الإسلام، فأدُّوا بهذه المهمة الإصلاحية خدمةً عظيمةً للمجتمعات الإسلامية؛ حيث أعادوا لها شخصيتها المسلوبة، وكرامتها المفقودة، وشكلت رؤاهم الفكرية ومواقفهم الإصلاحية معالم المجتمع المسلم. وقد بقيت جهود المصلحين، ولم تسقط من ذاكرة التاريخ، فقد حفظ الزمان آثارهم، وتعاقبت الأجيال على دراسة سِيرِهم وأفكارهم، وبقيت بصماتهم الفكرية حيّة في ضمائر المسلمين، وعقولهم في كل وقت.

وفي هذا البحث نحاول تسليط الضوء على بعض جهود أعلام الفكر الإصلاحي بالجنوب الشرقي الجزائري من خلال المقاومة الفكرية، والتَّصدي لآفة التَّنصير التي طغت على الفكر الاستدماري الفرنسي، ونخص بالدراسة الشيخ محمد السعيد الزاهري وجهوده في مواجهة المدِّ التنصيري الفرنسي:

- فمن هو الشيخ محمد السعيد الزاهري؟ وما هي أهم محطات حياته العلمية والعملية؟
- وما هي السياسات والوسائل التي انتهجتها فرنسا لتنصير أبناء الجزائر من وجهة نظر الشيخ الزاهري؟
- وكيف كانت جهوده وإسهاماته في التصدي ومقاومة هذا الغزو التنصيري؟

ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

أ. ارتباط الموضوع بالفكر الإصلاحي، وعلاقته بالدعوة إلى الله تعالى، ولا يخفى ما للدعوة الإسلامية من أهميةٍ في بناء المجتمع المسلم، وصيانته من المؤثِرات السلبية التي تهجم عليه، وتحاول سلخه من هويته العربية والإسلامية.

ب. مكانة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- العلمية والعملية، والاشتغال بموروثه العلمي ردٌّ لبعض الجميل لهذا الشيخ المصلح، والوقوف على مكامن القوة،والعظمة في شخصية هذا الرجل، وخدمةٌ جليلة لما تركه للأجيال القادمة.

ج. دراسة جوانب المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي، وتسليط الضوء عليها، يتيح الفرصة للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية مواجهة المشكلات، والوقوف على العقبات، والإفادة من تجارب وخبرات هؤلاء الأعلام في التقييم والتقويم وإيجاد الحلول المناسبة.

ـ أهداف الدراسة:

يهدف هذا الموضوع إلى تحقيق أمورٍ منها:

أ. إبراز جهود أعلام الجنوب الشرقي في الحفاظ على الهوية الإسلامية العربية للجزائريين، وبيان القيمة العلمية، والإصلاحية لرواد النهضة في الجزائر، بلد الإسلام والعروبة، والحصن الذي تحطَّمت عليه هجمات الأعداء طوال التاريخ، هذه الجهود التي لازلت مجهولة لدى الكثير من الجيل الجديد، وتسليط الضوء عليها يصل الحاضر بالماضي، ويربط الناشئة بأسلافهم، فتحافظ هذه الأمَّة على هويتها العربية والإسلامية.

ب- إزاحة السِّتار عن شخصية إسلامية بارزة، حاربت الاستعمار وأعوانه، وشاركت مشاركة فعَّالةً في الإصلاح والإرشاد، حتى ننسب الفضل لأهله، وتتعلَّق الأجيال بفكره.

ج- مواجهة ظاهرة التنصير في زمن الاستعمار الفرنسي، وقد كانت همًّا يحمله كلُّ روّاد الإصلاح في ذلك الزمن، إذ يعتبر أكبر تحدٍّ وخطرٍ يواجهونه في ظلِّ السعي الحثيث لفرنسا، من أجل سلخ الشعب الجزائري من هويته الإسلامية، والعربية، فالوقوف على جهود هؤلاء الأعلام في مواجهة التنصير ينمِّي روح المسؤولية عند الجيل المعاصر، ويوقد الشعلة من

أجل كسب الرهان في التصدي لحملات التغريب، والحداثة العلمانية، والتي لا تقل خطورة على ظاهرة التنصير.

ـ منهج البحث:

استخدمنا في هذا البحث منهجين اقتضتهما طبيعته:

أ- المنهج التاريخي: ووظَّفناه في دراسة ترجمة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله، وتتبع حياته الشخصية، والعلمية.

ب- المنهج الوصفي التحليلي: واستعملناه في توصيف المسائل الواردة في البحث، ثمَّ جمع المعلومات من مصادرها المتعلقة بهذه المسائل، وتوظيفها حسب الحاجة، ثم تحليلها تحليلًا علميًّا حسب متطلبات الدراسة، للوصول إلى نتائج علمية.

2. ترجمة موجزة للشيخ محمد السعيد الزاهري

2-1. الميلاد والنشأة:

ولد الشيخ محمد السعيد الزاهري ابن البشير بن علي بوزاهر المدعو الزاهري بمنطقة ليانة (وهي قرية من قرى الزاب الشرقي)[1] اتفاقا، واختُلف في تحديد السنة التي ولد فيها؛ فقيل سنة: 1897م، وقيل سنة: 1899م، أو حدودها، وقيل سنة: 1900م؛ أي: في مطلع القرن التاسع عشر، وقيل في حدود سنة :1901م[2]. وهو سليل أسرة عريقة تدعي النسب الشريف بانتمائها لآل البيت، الذي يتصل نسبه بالحسين بن علي ﷺ، وقد اكتسبت هذه الأسرة صفة المرابطية بانخراطها في سلك الطريقة القادرية. وكانت الأسرة تعجُّ بجوٍّ علميٍّ وثقافيٍّ معتبرٍ، من خلال مدارسها، ومساجدها كمسجد سيدي الوردي؛ حيث تخرج فيه الكثير من المشايخ، وكان أحد أعمام الزاهري مقدَّمًا لهذه الطريقة، كما كان لهذا المعهد مكتبة غنية بالكتب، والمخطوطات المتنوعة والنادرة، وفي هذا الجو العلمي والثقافي نشأ الطفل محمد السعيد [3].

2-2. مرحلة الكتاتيب:

وفي سن السَّابعة أُدخل الكتَّابَ بعد أن أظهر نبوغًا في صغره، وهناك حفظ القرآن، وابتدأ طلب العلم بتوجيهٍ من جدِّه الذي أقرأه بعض مبادئ الفقه، والتوحيد، والنحو، ثم تابع دروسه على علماء قريته بدءا بعمِّه الشيخ عبد الرحيم، والشيخ محمد بن ناجي

---

(1) المعروفة حاليا بمدينة بسكرة.

(2) ينظر: بلعجال أحمد، الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري، ص2، وينظر: كحكاح يمينة، الحركة الإصلاحية في منطقة الزيبان "الشيخ محمد السعيد الزاهري" أنموذجا 1900- 1956م، ص: 45، وقد ذكرت في الملحق بعض الوثائق التي تثبت بعض هذا الاختلاف إضافة إلى المقابلة الشخصية التي أجريت مع الشيخ إسماعيل بوزاهر يوم 26- 02- 2014 ، ص: 109- 112.

(3) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 7.

الزاهري، كما أخذ علما كثيرا على الأستاذ علي بن العابد السنوسي الزاهري[4]. وهذا الطريق هو الذي مهد له التوجه نحو مرحلة مهمة في تكوينه التعليمي، وذلك باختياره للالتحاق بالمدرسة الباديسية بقسنطينة[5].

2-3. المرحلة الباديسية:

أقام ما يقارب أربعة عشر شهرا طالبا بالجامع الأخضر، ينهل العلوم،والمعارف من دروس الشيخ ابن باديس؛ التي تنوعت بين تفسير القرآن وتجويده، والحديث النبوي، والفقه المالكي، والعقائد الدينية، والآداب والأخلاق الإسلامية، واللغة العربية بفنونها، وبعض الفنون العقلية ؛ كالمنطق، والحساب، ومع أنه كان شغوفا بهذا التعليم ومعجبا به؛ إلا أنَّ شخصية الزاهري لم تتفق مع طريقة ابن باديس التي كان يسلكها في التعليم، ما جعل الزاهري يغادر دروس الشيخ ابن باديس[6].

2-4. الانتقال إلى تونس:

بعد عودته من قسنطينة توجَّه مع عمه الرشيد إلى وادي سوف؛ حيث اتصل بالشيخ الهاشمي زعيم الطريقة القادرية، الذي أوكل إليه مهمَّة تعليم أولاده مقابل أجرة معلومة، وبتوطّد العلاقة مع الشيخ الهاشمي عرض عليه هذا الأخير سنة 1917م مرافقة أبنائه في رحلة لطلب العلم إلى جامع الزيتونة الشهير بتونس؛ فكانت منحةً إلهيةً أهديت للزاهري؛ لينهل من معين هذا الصرح العلمي الذي كان يحلم به مئات الجزائريين ممن رغبوا في طلب العلم، والأخذ منه بحظ وافر[7].

وتُعدُّ هذه المرحلة محطةً هامةً في حياة الزاهري ؛ حيث درس على مشايخ مشهورين مثل: الشيخ محمد النخلي، والأستاذ عثمان بن خوجة، والشيخ معاوية التميمي، وغيرهم، كما التقى بأهم الشخصيات الأدبية والفكرية التي كانت تؤمُّ هذا الصرح من كلِّ وجهة، وفي هذه الأجواء أخذ الزاهري منطلقات فكره الإصلاحي، والوحدوي؛ فلم يكن منكبًّا على طلب العلم وحسب؛ بل كان مهتمًّا بما يحيط بأمته العربية والإسلامية عموما، والجزائرية خصوصا، فنجده يستغل رفع الإجراءات الموجهة ضد الصحافة التونسية ليستفيد منه، ويشارك بمساهمات صحفية جادَّة؛ مثل مشاركته في الصحف التونسية، كصحيفة "النهضة"، و"الزهرة"، و"الوزير"، فضلا عن مشاركته في الصحف غير التونسية كـ"الإقدام" الجزائرية، و"الفتح" المصرية، والَّتي دلَّت على تفاعله مع الأحداث الداخلية والخارجية[8]،

---

(4) ينظر: السنوسي محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص:116.

(5) ينظر: بومديني محمد، محمد السعيد الزاهري ودوره الإصلاحي، ص:3.

(6) ينظر: السنوسي محمد الهادي، مرجع سابق، ص :117-118.

(7) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص:7.

(8) ينظر: السنوسي محمد الهادي ، مرجع سابق، ص :118- 119. وينظر: طبيش عبد الكريم، أدب المقاومة عند محمد السعيد الزاهري من خلال جريدة "البرق"، ص:61- 62.

ليترك بذلك بصماتٍ واضحةً في الساحة السياسية، وهو لا يزال شابًّا يافعًا.

وفي نهاية المرحلة التعليمية بجامع الزيتونة خضع مترجمنا لامتحانٍ، نال بعده شهادة التطويع؛ بعد رحلة علمية، وفكرية مهمة دارت بين أروقة الجامع، وحِلق الدرس، وردهات المكتبات، وصفحات الجرائد، والمنتديات الأدبية، أكسبته شخصيةً علميةً، وثقافيةً راقيةً[9].

2-5. **العودة للوطن**:

عاد الزاهري إلى أرض الوطن في العام: 1925م؛ ليستقر بالجزائر العاصمة، وينضم لجماعة الإصلاح، ناهضًا بأعباء الجهاد على أكثر من صعيدٍ[10]، وليبتدئ عمله الإصلاحي بتسخير قلمه في سبيل صحيفة وطنية عربية، فأنشأ جريدة **"الجزائر"**، وجعل شعارها "الجزائر للجزائريين"، صدر منها ثلاثة أعداد فقط، لتتدخل الإدارة الفرنسية وتعطِّلها سريعاً؛ نظرا لحرارتها وصدق وطنيتها، وفي هذا الأساس كتب ابن باديس في جريدة **"المنتقد"**: "جلا علينا العدد الأول من "الجزائر" فوجدنا بها مقالات بليغة، في متانة تعبير، وسمو فكرة، ونبالة مقصد، وثقة ببلوغ الغاية، وجدير بها إذا كان السعيد واضعها، أن يكون السعيد طابعها"[11].

وعلى شاكلة الأمير خالد، كان الزاهري حرّ التفكير، وطنيّ التوجّه، يبحث دائما، بلا هوادة ولا كلل، عن السبيل الموصلة إلى تخليص أبناء ملته من براثن الاستعمار، ولقد كان مقتنعا بأن المعرفة هي أفضل سلاح لذلك، لكنه لم يكن يفرق بين مختلف مجالاتها، بل يعتبر أن السياسة، والأدب، وعلوم الاجتماع، والاقتصاد، والدين كلها مكملة بعضها لبعض، ولا يمكن لأحدها أن يفيد فائدة إذا كان في معزل عن الباقي، وقد جند الزاهري قلمه، ونذر وقته كله لخدمة هذا الاتجاه، وكعادته، كان ينشر في كل جريدة تشجّع على قبول إنتاجه الناري كما يضعه[12].

2-6. **الانضمام إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والخروج منها**:

لم يكتف الزاهري بالكتابة والشعر، فراح يفكر جدّيًّا في إنشاء إطارٍ نظاميّ ؛ يمكنه من تعبئة الطاقات الحيّةِ، لتحقيق أهدافه في توعية الجماهير، وتزويدها بالمعرفة، وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أنه أعدَّ في سنة: 1928م قانونًا أساسيًّا لبعث ما سماه بـ "حزب الإصلاح الديني"، ولقد أشار إلى هذا القانون في حديثٍ كان أجراه مع الشيخ **عمر راس**، ونشره سنة: 1929م بمجلة "الفتح": "وتكلمنا في الإصلاح الإسلامي، فقلتُ له أني أشتغل

(9) ينظر: السنوسي محمد الهادي، مرجع سابق، ص :118، والخرفي صالح، محمد السعيد الزاهري، ص: 24، وبلعجال أحمد، مرجع سابق، ص:9.

(10) ينظر: صيد عبد الحليم، معجم أعلام بسكرة، ص:112.

(11) تحت عنوان: الصحافة العربية -الجزائر، العدد: 5، الخميس 11 محرم 1344هـ/ 30 جويلية 1925م، ص: 3.

(12) الزبيري العربي، المثقفون الجزائريون والثورة، ص:61.

بوضع القانون الأساسي لحزب الإصلاح الديني، فإذا فرغت منه عرضته على جماعة الإصلاح، وعقدنا اجتماعا عموميا لبحثه وتمحيصه، ثم عرضناه للموافقة، وأطلعت الشيخ راسما على مجمل هذا القانون، فقال: إنه برنامج محكمٌ، يمكن بكل سهولة تنفيذه بتدقيق، وهو كفيل برد جميع طبقات المسلمين في الجزائر إلى القرآن الكريم، وتوحيد كلمتهم عليه، وأنه بغير هذا لا يمكن لنا أن نجمع أشتات هؤلاء المسلمين"[13].

وهذا المشروع المذكور جعله بعض الباحثين من الأسباب الرئيسة لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بعد سنتين من التاريخ المذكور، والتي كان الزاهري أحد أعضائها البارزين في مجلسها الإداري. كما أنَّ مذهبه الشمولي هو الذي جعله يكون في الوقت نفسه عضوا قياديًّا بجمعية العلماء، ومناضلا بارزا في صفوف نجم شمال إفريقيا، الذي كان يؤمن ببرنامجه السياسي، ويدعو بشتى الوسائل إلى تطبيقه، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الزاهريَّ -كما تقدَّم- يُعدُّ بكتاباتِه ومواقفه واحدًا من الرُّواد الذين رفعوا راية الجهاد على كل الجبهات، من أجل أن تعود الجزائر للجزائريين، ومن أجل أن تتحد أقطار المغرب العربي، وتوحِّد نضالاتها ضد الهيمنة الاستعمارية.

أما ما يتعلق بعمله في الجمعية؛ فقد وضع فيه الإمام ابن باديس ثقةً كبيرةً لكفاءته العلمية، وقدرته على الكتابة شعرا ونثرا، ما جعله يحمِّله بمعية الشيخ الطيب العقبي رئاسة تحرير جريدتي "السنة النبوية" و"الصراط السوي" الصادرتين في سنتي: 1933م و1934م؛ حيث جند هناك قلمه لخدمة الإسلام، ونشر فكرة الإصلاح، ولم يتردد قط في التصدي لمختلف مشايخ الطرق، وعلماء الاستعمار الذين كان يوظفهم في ميادين مختلفة[14]. وهذا ما تسبب له في كثيرٍ من الأحيان في جلب عداوات المخالفين بطرق ملتوية، كان من أبرزها ذلك الاعتداء الجسدي المباشر، الذي كاد يودي بحياته عندما شج مجهول رأسه بهراوة، ثم لاذ بالفرار.

بعد سنوات غير طويلة من العمل الجاد مع الجمعية نشبت خلافات داخل الجمعية بين فكر الزاهري السياسي والإيديولوجي، وفكر الجمعية المتعلق بخطة الطريق الإصلاحية، ما جعل هذا الأخير ينشق عن الجمعية، وينسحب تدريجيًّا، مع التركيز على النضال في صفوف "**نجم شمال إفريقيا**" وفي صفوف "**حزب الشعب**"، وهو ما يلمسه القارئ لكتاباته الصحفية مثل جريدة "**الليالي**" ذات النزعة الإصلاحية، وجريدة "**الشعب**" اللسان المركزي لحزب الشعب الجزائري، وجريدتي "**سيدي هنيني**"، و"**الميدان**" الوطنيتين. وأما مساهماته في الكتابة حول هموم الوطن العربي المختلفة، وقضايا العالم الإسلامي فإنها بقيت مستمرةً؛ حيث كان يزود الصحافة العربية - خاصة في تونس، ومصر- بمقالات مطولة في ذلك.

---

(13) الزاهري محمد السعيد، حديثٌ مع الشيخ راسم، مجلة الفتح، العدد: 159، سنة :1929م، ص: 138.
(14) الزبيري العربي، مرجع سابق، ص: 62- 64.

وفيما يخص مكانته الأدبية والفكرية فيشهد له كبار الأدباء والمفكرين بأنه كان من العمالقة الذين يمتازون ببعد النظر، والفكر النَّيِّر، والأسلوب الأخَّاذ، والقدرة على الجمع بين صفتي الصحافي الناجح، والكاتب المبدع، وفي هذا يقول الزبيري: "وإننا لا نبالغ عَنَدًا نؤكد أنَّ كثيرا من مقالات الزاهري ودراساته حول موضوعات خطيرة، مثل وحدة المغرب العربي، والإصلاح، والإسلام والمسلمين ما تزال صالحة للنشر، وأن نعرِّف بها أجيالنا الصاعدة للإفادة والاستفادة"[15].

2-7. **النشاط التعليمي**:

كانت مساهمات الزاهري في مجال التربية التعليم مساهمةً رائدةً؛ إذ كان يعتقد أنَّ تعليم الأطفال وإنشاء المدارس والكتاتيب القرآنية أهم هذه الوسائل، والمطَّلع على مسيرته التعليمية يجده مباشراً للميدان حيناً، ومشاركا بخطاباته، ومقالاته التي تتناول العلم والتعليم أحيانا أخرى، فقد درس بالعاصمة شمالا، واستقر الزاهري بداية من سنة: 1929م بتلمسان، وتصدر مجال التدريس حيث أسَّس بها مدرسةً تعليميَّةً، لينتقل منها نحو وهران، ثم الجزائر العاصمة[16]، وفي عام: 1344هـ سافر الزاهري إلى مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري، وأنشأ بها مدرسة **"الشبيبة القرآنية"** لمقاومة الجهل المفروض على أطفال تلك المنطقة؛ ولبث فيها ستة أشهر كاملة، ذكر فيها الزاهري أنه احتمل من العناء في هذا المشروع ما لا طاقة له به، لولا حبه لهذا الوطن، مما اضطره إلى السفر إلى بسكرة، مسقط رأسه. دعا سنة: 1927م إلى تأسيس مدرسة للتربية والتعليم، والتي يبدو أنها لم تر النور إلا سنة: 1931م، وفي وهران أنشأ جمعية **"الإصلاحية"** سنة: 1934م، التي كانت تعمل على تعليم العربية، وبعث العروبة؛ فكان الزاهري معلما أينما حلّ، وارتحل[17].

2-8. **النشاط الصحفي**:

وإذا أردنا تلخيص نشاطه الصحفي؛ فيمكن القول : إنه ساهم في هذا الميدان في وقت مبكِّرٍ قبل تخرجه من الزيتونة؛ أي : قبل رجوعه إلى الجزائر، وبعد العودة للوطن شرع في تأسيس عدة صحف أهمها: صحيفة **"الجزائر"** سنة: 1925م، وهي سياسية تناصر الاتجاه الوطني الإصلاحي، وصحيفة **"البرق"** سنة: 1927م ذات الاتجاه الإصلاحي الديني، وصحف **"السنة النبوية"**، و**"الشريعة المحمّدية"** و**"الصراط السوي"** سنة :1933م لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان يرأس تحريرها رفقة الشيخ العقبي، وساهم في تحرير جريدة **"الجحيم"**، وجريدة **"الوفاق"** سنة :1938م، وجريدة **"المغرب العربي"** سنة: 1947م الناطقة باسم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وصحيفة **"عصا موسى"** سنة:

(15) نفسه، ص :67.

(16) ينظر: بومديني محمد، مرجع سابق، ص:5.

(17) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 101- 103، وطبيش عبد الكريم، مرجع سابق، ص:65.

1950م، إضافة إلى مشاركته في صحف أخرى مثل" **الإقدام**"، و"**الشهاب**"، و"**البصائر**"، و"**الإصلاح**"، ومقالات مترجمة له في "**الكفاح الاجتماعي**"، و"**وهران الجمهورية**" الناطقتين بالفرنسية، كما كان يراسل الصحف التونسية كـ "**الوزير**" و"**الزمان**" و"**النهضة**"...، ويراسل صحف المشرق المشهورة، مثل: "**القلم الحديدي**"، و"**الفتح القاهرية**"، و"**المقتطف**"، و"**الرسالة المصرية** "، وهذه الإطلالة تدلُّ على أنه كان من رواد الصحافة الكبار في الجزائر[18].

2-9. **آثاره**:

رغم القلم السَّيَّال الذي كان يملكه الزاهري، والمقالات العديدة والمتنوعة التي خلّفها، إلا أنه كان قليل التأليف؛ وهو ما كان يفرضه الوضع الاجتماعي والسياسي على كثير من إخوانه الجزائريين، وأهم كتاب مطبوع تركه الزاهري هو كتاب: "**الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير**"، وهو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا، كما أن للزاهري مؤلفات أخرى غير مطبوعة منها:

- **حاضرة تلمسان**: كتابٌ مخطوطٌ يحتوي على وصف دقيق مستوعب لمدينة تلمسان، يضم قرابة 300صفحة.
- **بين النخيل والرمال**: كتابٌ مخطوطٌ في وصف الواحات البديعة بالجنوب الجزائري.
- **حديث خرافة:** كتابٌ مخطوطٌ عبارة عن نظرات، وأفكار في الأدب، والحياة، والاجتماع.
- **شؤونٌ وشجونٌ**: كتابٌ مخطوطٌ يضمُّ فصولا عدَّةً في موضوعات مختلفة.

يضاف إلى مؤلفات الزاهري المذكورة مقالاته المتنوعة الخصبة، وقصائده الشعرية الكثيرة المنشورة في الصحف، والمجلات الجزائرية، والشرقية[19].

2- 10. **وفاته**:

قِيل إنَّ سبب تعرضه للقتل هو مقالٌ نشره في جريدته "**المغرب العربي**"، والذي كان بعنوان "رحلة مريبة لمهمة مريبة"، ينتقد فيها بعض تصرفات جبهة التحرير الوطني؛ حيث تعرَّض الشيخ الزاهري لعملية اغتيال بعد أيام قليلة من هذا النشر، حين كان مارا بشارع "**لالير**" ، بساحة الشهداء بالجزائر العاصمة، رفقة الهاشمي العربي؛ إذ تقدم أحد المسلحين ليرديه قتيلا يوم: 21 ماي 1956م [20].

---

(18) بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص:18- 33، وينظر: مصمودي فوزي، تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة وإقليمها من 1900 إلى 1954م ، ص:93، حيث ذكر صحفا أخرى.

(19) صيد عبد الحليم، مرجع سابق، ص :113.

(20) ينظر: طبيش عبد الكريم، مرجع سابق، ص :69، وينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 214/10.

3. جهود الشيخ محمد السعيد الزاهري في مواجهة ظاهرة التنصير

3-1. تمهيد:

لا شكَّ أنَّ الاحتلال الفرنسي احتلالٌ صليبيٌّ، وقد ظهر ذلك من خلال الرُّوح الصليبية، التي لخصها شارل العاشر (1757-1880م) الذي أمر باحتلال الجزائر، وقال مبرراً عمله ذلك: "إنَّ العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا، سيكون بإعانة العلي القدير لفائدة المسيحية جمعاء"، ويؤكد ذلك أيضا تصريح أحد مساعدي الماريشال بيجو حيث قال: "إنَّ أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إلهٌ غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أنَّ نشكَّ في أنَّ هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكن أن نشكَّ على أي حالٍ بأنها ضاعت من الإسلام إلى الأبد"[21]، وقد ظهر ذلك ميدانيا بضم الممتلكات الدينية؛ كالأوقاف، وتحويل المساجد إلى كنائس[22]. وقال لافيجري: "علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهداً لدولةٍ عظيمةٍ مسيحيةٍ، أعني بذلك فرنسا أخرى، يسودها الإنجيل ديناً، وعقيدةً، فهذه آيات الله"[23]، وقال أحد ساسة الاحتلال: "لا تظنون أنَّ هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، أفلا تعلمون أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع الإسلام بهذه الديار"[24]. فقوبل هذا القول بتصريح الشيخ ابن باديس -رحمه الله- فقال[25]:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبْ
أَوْ رَامَ إِدْمَاجاً لَهُ رَامَ الْمُحَالَ مِنَ الطَّلَبْ

والاستدمار الفرنسي صليبي محترق، يقوده القساوسة والرهبان، قال الشيخ البشير الإبراهيمي -رحمه الله-: "الاستعمار الفرنسي **صليبي النزعة** فهو- منذ احتل الجزائر- عامل على محو الإسلام ؛ لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية ؛ لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة ؛ لأنها دعامة

(21) ينظر: بن نعمان أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق، ص: 160، وعيساوي أحمد، جهود الشيخ العربي التبسي وآثاره الإصلاحية، 190/2.

(22) ينظر: تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 109.

(23) ينظر: حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ص: 125.

(24) الإبراهيمي محمد البشير، الآثار، 284/5.

(25) ابن باديس عبد الحميد، الآثار، 571/3.

الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ظاهرة وخفية، سريعة، ومتأنية"[26]. والاستعمار والتبشير صنوان يعضّد أحدهما الآخر، فقد تمثَّل المخطط الفرنسي للقضاء على الهوية الإسلامية للجزائر؛ في موقفه من الأوقاف الإسلامية، والمساجد، والمحاكم الشرعية، والمعاهد العلمية، فمنذ بداية الاحتلال عمد قادة الاحتلال إلى الاستيلاء على المساجد، وتحويلها إلى كنائس، مثلما حدث لـ"**مسجد كتشاوة**" في عاصمة البلاد، وغيره من المساجد في مختلف أنحاء الوطن[27].

وصرَّح دعاة التبشير أنَّ هدفهم هو إرجاع المسيحية على أرض إفريقيا الشمالية، كما كان قبل دخول الإسلام إليها[28]. وقد استخدم المبشرون المسيحيون جميع الطرق في سبيل نشر المسيحية، كما استغلوا جميع المناسبات، فاستغلوا التَّطبيب، والتعليم، والوعظ والترجمة...إلا أنهم ورغم هذه الجهود التي بذلوها قد فشلوا في مهمتهم لتمسك المسلمين بدينهم ودين آبائهم[29]. "والمبشرون أول ما يلقون للأولاد هي كلمة الشرك -والعياذ بالله-، ثم إنهم يكرّهون له الإسلام بالتنقيص لنبينا الكريم"[30]. ونقل الزاهري عن الجنرال الفرنسي آزا في كتابه "**المسألة الجزائرية**" فضيحة استغلال الكاردينال لافيجري لمجاعات (1867-1868م) باختطافه للأطفال الجزائريين قصد تنصيرهم[31].

2-3. التنصير والتبشير في منطقة الزيبان.

زاد اهتمام فرنسا بالجنوب الجزائري، وتوقَّدت شعلة التنصير في نفوس الفرنسيين منذ تولي لافيجري أسقفية الجزائر سنة: 1867؛ حيث قرر غزو الإنسان الجزائري، وكانت منطقة الصحراء الشغل الشاغل للكاردينال لافيجري ؛ حيث يعتبر الوصول إلى تخومها، ومدّ النفوذ المسيحي فيها أمرا هامّا، وجوهريا بالنسبة له؛ لأنه يعتبر الجزائر نقطة الانطلاقة التي تتسرب منها حركة التبشير إلى إفريقيا كلها؛ خاصة في ظل التنافس الاستعماري الأوربي على القارة الإفريقية، وبعث برسالة إلى "ج. رولاند" (G.Rolland) أحد كبار مشروع سكة الحديد العابرة للصحراء، قائلا له: "لطالما اعتبرت مسألة التوغل في الصحراء، والسودان

(26) الإبراهيمي محمد البشير، مرجع سابق، 151/5 .

(27) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 78.

(28) ينظر: ناصر محمد، المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها، تطورها، أعلامها من : 1903م إلى 1931م، ص: 139.

(29) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 78.

(30) الزاهري محمد السعيد، نحن والمبشرون، الشهاب، المجلد3، العدد: 133، 10 شعبان 1346هـ/ 2 فيفري 1928م، ص: 10.

(31) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ص: 83.

الغربي أحد النقاط الأساسية لمصلحة فرنسا في الجزائر"[32].

وبالرغم من تجذّر الدِّين الإسلامي في نفوس سكان الصحراء؛ إلَّا أن الكاردينال لا فيجري صرّح لدى وصوله إلى الجزائر قائلا: "إن الجزائر بابٌ مفتوحٌ بيد العناية الإلهية على قارةٍ متوحشّةٍ، يعيش عليها مليونان من النفوس"؛ حيث إنَّ تأمين الصحراء وتهدئتها -لفتح الطريق أمام المبشرين الذين يقصدون إلى إفريقيا السوداء- من الأهداف الأساسية التي تعاونت الكنيسة، والسلطة الاستعمارية لتحقيقها تعاونا كبيرا[33]؛ لذلك عمل على إيجاد مناطق تبشيرية متقدمة، تساعده على الاطلاع على منطقة الصحراء وسكانها، فكانت البداية ببعث ثلاثة من الأخوات البيض إلى مدينة الأغواط، في ديسمبر سنة: 1870م، ووصلوا إليها بعد ستة أيام من سفر كان شاقًّا ومتعبًا، فمرضت الأخوات البيض؛ لعدم تأقلمهم مع قساوة المناخ، واضطر لافيجري إلى استدعائهن، وتعويضهن بإرسال اثنين من الآباء البيض اليسوعيين ؛هما الأبوان "روشي" (ROCHER)، و"أوليفي" (OLIVIER)، اللذان كانا يتقنان اللغة العربية، وكان من أهداف هذه الحملة ضمان الممارسة الدينية المسيحية لدى المستوطنين الفرنسيين، ومختلف العائلات الأوروبية المقيمة هناك، والقيام بوظيفة الإرشاد الديني في أوساط الجيش الفرنسي المقيم بالأغواط[34]. ومن جهة أخرى محاولة الاحتكاك بالقبائل العربية الجزائرية بالجنوب ؛ لتحضير مراكز تبشيرية في الواحات، والصحراء الكبرى، وقد تم تعيين الأب "شارموتان" (Charmetain) رئيسا لمركز الأغواط، والذي يعتبر مقرًّا رئيساً لبداية إرسالية تبشيرية واسعة، تصل حتى السودان.

انطلق الأب شارموتان من الأغواط إلى وادي ميزاب في خريف سنة: 1872م؛ حيث استغرقت هذه الرحلة شهراً كاملاً، لخَّص فيها أحوال ومعيشة السُّكان بالمنطقة بصفة عامة، ودقيقة، ثم عاد واستعرض أمام لافيجري كل ما شهده من طريقة عيش السكان؛ سواء الاجتماعية، والاقتصادية، وحتى الدينية، فاتخذ لافيجري خطوة أخرى؛ حيث قام ببعثه للمرة الثانية، ولكن على أساس كاهن إلى الأغواط برفقته اثنين من الآباء البيض، وهما "بوشان" و"بولمي"، وحدّد لهما هدفا أساسيا يتمثل في الوصول إلى بسكرة، كما أرسل الأب "ريشارد" نحو **تقرت**، و**ورقلة**، وقام ببعث الأب "باسكال" إلى البيض، ثم أمرهم بعد ذلك بوجوب التقدم نحو بسكرة، غرداية، متليلي، والمنيعة، كل ذلك كان بعد سنتي:

---

(32) ينظر: الجناحي الحبيب، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 16، 1974م، ص: 29؛ ومرجاني عبد القادر، السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م، ص: 129.

(33) ينظر: مرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

(34) ينظر: مزيان سعيدي، النشاط التبشيري للكاردينال لافيجري في الجزائر 1867م-1892م، ص: 388؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

1872-1873م[35].

إنَّ من أهم مظاهر تواجد المدِّ التنصيري في الجنوب الشرقي الجزائري، واهتمامه البالغ بهذه المنطقة تأسيس هيئات تبشيرية، وأبرز هيئتين أنشأهما لافيجري في هذه المنطقة:

- جمعية الآباء البيض (Père Blancs):

حيث أسس لافيجري جمعية مبشري الجزائر (La Société Missionaires d'Alger)، أو الآباء البيض عام: 1874م، مستغلاّ ظروف المجاعة، والقحط الشديد الذي ألم بالبلاد عام: 1867م، وسميت بهذا الاسم نسبةً إلى الزي الأبيض الذي كان يلبسه أعضاؤها، والذي يشبه تماما الزي العربي في ذلك الوقت، إلا أنَّ التسمية الحقيقية التي أطلقها عليها مؤسسها آنذاك هي "جمعية مبشري السيدة الإفريقية"، أو "مبشروا الجزائر"، أما عن دستورها؛ فهو يقع في ستة فصول، وغُيِّر فيه في العديد من المرات، إلى أن استقر في صيغته النهائية، عندما صادق عليه البابا سنة 1885م، وفي عام 1874م استكملت هاته الجمعية تنظيمها، وبدأت في تأسيس مراكز لها بجنوب البلاد: بسكرة، الأغواط، متليلي، والأبيض سيدي الشيخ[36].

- فرقة إخوان الصحراء المسلّحين:

فقد مثَّلت بسكرة نقطة ارتكاز فرنسي لانطلاق الدعاية التنصيرية، وقد ساعد إنشاء كنيسة بها سنة: 1854، واتخاذ لافيجري لها مقر إقامة شتوية له في ظهور فرقة إخوان الصحراء المسلّحين، وهي فرقة دينية مسلحة، تتولَّى حماية أعضائها، وتتمتع بنظامٍ ديني عسكري صارم، كما بنى لافيجري بها الزاوية المسيحية، أو بيت الله[37]. ويمكن اعتبار الموقع الجغرافي الاستراتيجي لكل من بسكرة، وجنوب غرداية، وتقرت السبب الرئيس في اختيار الاستقرار بها، كون هذه المواقع تعتبر كمحطات لالتقاء القوافل، ما يسمح للآباء الانتقال معها عبر الصحراء لمزيد من الاستكشاف والتوغل، ولم تمر سنة : 1878 حتى تمكن الأبوان: "ريتشارد" و"كرامبون" من تنصيب مقرهم بورقلة، والذي ضم مدرسةً، ومصحّةً، وورشةً للنسيج، تديرها الأخوات البيض، وورشَّة للذكور، بها آلات النسيج الميكانيكية، وفي سنة: 1930م وصل عددهم سبعة وعشرين أبا، وأربعة وأربعين أختا، ومن السكان بلغ العدد خمسين متنصّراً جديداً[38].

3-3. سياسة فرنسا لتنصير الشعب الجزائري من وجهة نظر الشيط الزاهري:

---

(35) ينظر: مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص: 16؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

(36) ينظر: تشايجي عبد الرحمن، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، ص :97؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 133.

(37) ينظر: مزيان سعيدي، مرجع سابق، ص: 351؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 134.

(38) ينظر: داود عمر، الحركة التبشيرية في الجزائر -نشاط الآباء والأخوات البيض في غرداية أنموذجاً-، ص 60-61؛ ومرجاني عبد القادر، مرجع سابق، ص: 130.

أمَّا بالنسبة للطرق، والوسائل التي انتهجتها فرنسا في سبيل تنصير الشعب الجزائري، وسلخه من هويته الإسلامية في منظور الشيخ الزاهري -رحمه الله- فهي كالتالي:

أ- الدعاية المغرضة ضد مدارس جمعية العلماء المسلمين:

قال الزاهري: "ومنهم من يمسك ولده بدعوى أن الإصلاحية لا تعلمه إلا الكفر بالله، وبالأولياء، ثم يذهب به إلى المبشرين المسيحيين، أو المبشرات المسيحيات، وهذه عادة شائعة في وهران، يرتكبها حتى الأغنياء، والمستورون كما يفعلها العاطلون"[39].

ب- سياسة الوعد والوعيد:

وهذه سياسة اتخذها المنصِّرون لإغراء أولاد المسلمين الصغار، واحتوائهم؛ لأجل تنصيرهم، قال الزاهري: "ولا تزال هؤلاء المبشرات يستلمن صغيراتنا المسلمات بألوان من الهدايا، والهبات الصغيرة بمناسبة الأعياد الدينية المسيحية، وبطرق مغرية تحبِّب إليهنَّ السيد المسيح، وتزينه في قلوبهن"[40]. وقال أيضا: "كان يوم 23 ماي الأخير يوم حزن وحداد على المسلمين في عاصمة الجزائر...لقد بذل القائمون على هذه الاحتفالات أقصى ما يمكنهم أن يبذلوه من الجهود، والنفقات ؛ ليجعلوها شائقة فخمة، تجمع كل أسباب البهرجة والأبَّهة والجلال، ليعظموا في أعين الناس، وليغمرهم الناس بالمدح والثناء على ما عملوا من تبشير، وتنصير وليقدر المسيحيون الكاثوليك أعمالهم هذه، فيمدونهم بالمال من جديد، ويجزلون لهم الأجر والثواب"[41]. فإذا لم تنفع سياسة الإغواء أظهروا سياسة التهديد، قال الزاهري -رحمه الله-: "فهذا صاحب مقهى عربي؛ يهددونه بانتزاع الرخصة إن لم يبادر بمنع كريمته من دخول الإصلاحية، وهذا موظف بسيط أفهموه أن في إمكانهم طرده، وقطع رزقه إن لم يسرع إليهم بإرسال بنته، التي تقرأ في الإصلاحية وهكذا"[42].

ج- سياسة الاستغلال:

ومن الأدلة على ذلك انتشار هذه الحركة في الأزمات كالمجاعات، قال الشيخ الزاهري: "وكان أكثرهم أطفالا صغارا قد عجز آباؤهم، وأولياؤهم أن يقوّتوهم أو أن يقوموا لهم على ضرورياتهم، فالتقطهم المبشرون المسيحيون، واستغلوا جوعهم، وضعفهم فاستولوا عليهم واحتلوا منهم العقائد، والقلوب، وكنت أنا أراهم يمرّون، فقلت في نفسي: إن أولياء هؤلاء الأطفال لم يتركوا أولادهم هؤلاء؛ إلا بعد أن بلغوا هم من الفقر، والشقاء حالة ليس

---

(39) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، جريدة البصائر، العدد: 6، يوم الجمعة 13 ذي القعدة 1354هـ/7 فيفري 1936م، ص: 3.

(40) المرجع نفسه.

(41) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، السنة الأولى، العدد الثاني، يوم الاثنين 01 ربيع الثاني 1352هـ، ص: 6.

(42) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين مرجع سابق، ص: 3.

وراءها حالة أسوأ منها، وأن هؤلاء المبشرين المسيحيين لو راعوا الهمة، والرجولة لما رضوا لأنفسهم أن يستفيدوا مما يصيب الناس من المصائب، والنكبات، وأفضيت بهذا القول إلى مسلم كان واقفا إلى جانبي فسمعني أحد المسيحيين فقال لي: يظهر أن هؤلاء الآباء قد أحسنوا إلى هؤلاء الأطفال، وأحسنوا إليكم أنتم أيضا بذلك، فقلت له: كلاّ، لم يفعلوا مع هؤلاء الأطفال خيرا يريدون به وجه الله، ولكنهم أطعموهم من جوع ؛ لحاجة في نفس يعقوب، على أنهم قد سلبوهم إيمانهم،وإسلامهم في مقابلة ذلك، ولمّا تنصر هؤلاء، وتركوا الإسلام ؛ فالإحسان إليهم ليس بإحسان إلى الإسلام، ولكنه إحسان إلى المسيحية نفسها... إنما تركوا الإسلام إلى النصرانية حينما كانوا - كما لا يزال أكثرهم - ذرّية ضعافا، ما لهم من أولياء يواسونهم عند الحاجة الشديدة، والضرورة القصوى، أو حينما كانوا يتامى قاصرين ؛ لا يجدون لأنفسهم على نوائب الدهر مواسيا، ولا معينا، ولا وجدوا لهم بين هؤلاء المسلمين وليا،ولا نصيرا، وما أنت بواجد بين الضعاف القاصرين، أو اليتامى، ولا واحدا يتنصّر،وله ولي يحبه من هؤلاء المبشرين مهما كانت منزلته في اليتم، والضعف، والقصور"[43]. وهذه السياسة مشهورة، واهتبال فرص الفقر، والجوع، والمجاعة هو السبيل الوحيد لصرف الجزائريين عن الإسلام إلى النصرانية. وقال أيضا: "إنَّ المسلمين لا يمكن أن يتركوا الإسلام ويتنصَّروا، لقد وقعت مجاعاتٌ عديدةٌ في القرن الماضي في الجزائر، انتهز الكاردينال لافيجري -مؤسس إرساليات الأباء البيض- الفرصة لتنصير أطفال المسلمين؛ حيث التقط من مخالب المجاعات أربعة آلاف طفل صغير دون العاشرة"[44].

د- تركيز دعاة التبشير على الأطفال:

وهذا لقلَّة عقولهم، وضعف حصانتهم وحاجتهم، قال الزاهري: "ويرجعن بالصغيرات المسلمات على مراكز التنصير، والتبشير المسيحي... ويحرص المبشرون المسيحيون كل الحرص على جلب من في الإصلاحية؛ ولا سيما البنات بكل وسيلة. وقد أقبل المسلمون على دور التنصير هذه بناتهم وأبنائهم بصورة مروّعة، ففي مركز واحد عدد يتراوح بين المائة والثلاثين، وبين المائة والثمانين بنتا عربية مسلمة"[45]. وقد استوقفه موقف المتنصِّرين من أبناء الجزائر في حفلٍ أقامه رجال الكنيسة فرحاً، وبطراً بنجاحهم في سلخ عدد من شباب الجزائر عن دينهم، ثم ذكر سبب تنصُّر هؤلاء بقوله: "فهؤلاء المرتدُّون لم يتركوا دينهم القيِّم حبًّا في النصرانية، ولكنهم تنصَّروا ضعفاً، وجهلاً، وحبًّا في الخبز... وتركوا الإسلام إلى النصرانية، حينما كانوا -كما لا يزال أكثرهم- ذريةً ضعافاً ما لهم من أولياء يواسونهم عند

(43) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 6.

(44) الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 83.

(45) نفسه.

الحاجة الشديدة، والضرورة القصوى"[46].

هـ- علم دعاة التبشير بتقتير بعض الأغنياء وضنهم بأموالهم:

من أسباب تنصر أولاد المسلمين، إمساك، وضنُّ المسلمين بأموالهم، قال الزاهري -رحمه الله-: "وإن أحدهم ليرسل إلينا بولده ذكرا أو أنثى، فلا نالوا جهدا في تربيته وتعليمه شهرا، أو شهرين، فإذا جاء محصل الاشتراكات أمسك إليه ولده، واعتذر عن عدم السداد بوقوف الحال، ووعد بأنه سيدفع ما عليه متى تيسر... وكان عضوٌ بلديٌّ وهو من أغنياء وهران، ووجهائها، ومن المقربين إليّ والمتحمِّسين لي وللإصلاحية قد أرسل إلينا بأطفال هو وليهم، وتعهد بأن يؤدّي هو عنهم ما يجب من أقساط الاشتراك، فكانوا يحضرون دروسنا بالإصلاحية أربعة أشهر، ثم انقطعوا عن الحضور من غير أن يدفع إلينا الولي ولا سنتيماً واحداً، وهو معترف بما عليه، وبعد لا يفي، ونحن لا نزال ننتظر منه الأداء، وهو لا يزال ينتظر منا أن ننسى"[47].

و- الدعاية الكاذبة، وإلقاء الشُّبه في أوساط الشباب:

وذلك من خلال استغلال سذاجة ودروشة بعض المنتسبين للطرقية، وزعم أنَّ التصوف في الدين الإسلامي هو نفسه التصوف في دين النصارى، فهما شيءٌ واحدٌ، وينبعان من مشكاة واحدةٍ، ثم يروي قصة ذلك الشاب الفاسي الذي جازت هذه الحيلة عليه، وهو شاب من أسرة مشهورة بالدين،والصلاح والتصوف، وذكر سبب تنصره أنهم دخلوا عليه من باب "أنَّ روح الإسلام هي التصوف، وأن هذا التصوف إنما هو نفس المسيحية"[48]. ثم إنَّ تجارة المنصرين الرائجة هي دعاياتهم الكاذبة، قال الزاهري: "ثم إنهم أرسلوا في المقاهي والأسواق أناسا من المسلمين ينشرون دعوتهم، ويذكرون بمناقبهم وبأعمالهم الصالحات، كما يذكرون الصالحين الأخيار.."[49].

4-3. جهود الشيط محمد السعيد الزاهري في كشف عوار المنصِّرين:

إن إنكار رواد الإصلاح الديني في الجنوب الشرقي الجزائري على دعاة التنصير أمر شائع لا يمكن إخفاؤه، وحسنة لا تُنسى، وقد أفردت لجهودها رسائل، ومصنفات[50]، ويبرز في

---

(46) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 6.

(47) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(48) الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، ص 114، وينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 80.

(49) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(50) ينظر مثلا: حباسي شاوش، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر: 1830م-1082م، ورحمون نعيمة،وحريش حدَّة، أساليب ووسائل التنصير المعاصرة -الجزائر أنموذجا-، وبقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر:1830-1871م، وأحمد دومة، التنصير في الجزائر، وغيرها كثير.

هذا المجال جليًّا فضيلة الأستاذ الشيخ محمد السعيد الزاهري، كأهمّ المناوئين لهذه الظاهرة الخطيرة، والفاضحين لمخططات أربابها، في كثيرٍ من كتاباته الصحفية، والمناسبات، وقد اتخذ في سبيل ذلك مسارات، نذكرها في هذا المبحث:

أ- التنديد بالتبشير على صفحات مجلات جمعية العلماء المسلمين:

وهذه من أقوى الوسائل التي سلكها الشيخ، وذلك عن طريق المقالات، والتصنيف والتأليف، وله نقولٌ، وردودٌ كثيرة على دعاة التنصير، بل أفرد لهم مصنفاً في كشف غوائلهم عنوانه: "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير". قال الزاهري: "أيها المسلمون الجزائريون إنها لكبيرة من الكبائر، وعظيمة من العظائم أن يتنصّر ألف وسبعمائة مسلم ؛ هم من صميم الإسلام في وطن كالجزائر، كلّ أهاليه مسلمون لا يوجد بينهم -ولا واحد -غير مسلم، ونحن بعد ذلك ندَّعي أننا من أشد الناس تمسُّكا بالإسلام، يجب أن نعالج هذا الداء بالوسائل العادلة المشروعة قبل أن يستفحل، ويعظم أمره علينا، فلا نستطيع أن نداويه، أو أن نتلافاه، إن هذا العدد من أطفالنا المتنصّرين هو عدد كبير جدا، ولا يزال يتزايد كل يوم، وإن استمر هكذا فإننا نخشى على مصير الإسلام في هذه الديار، أيها المسلمون الجزائريون؛ كيف نرى أطفالنا، وأفلاذ أكبادنا يفتنونهم عن دينهم، ويصدونهم عن سبيل الله، ثم لا نتحرك إلى إنقاذهم، ولا تذهب أنفسنا عليهم حسرات!!

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان"[51].

وكتب منددِّاً بسياسة التنصير التي سلكها دعاة التبشير، متَّهما الإدارة الحاكمة بدعم التنصير: "وهم في الواقع لا ينشئون مدارس ولا مستشفيات، كما تفهمه من هذه الأسماء، بل هم ينشئون بين أوساطنا الإسلامية، والعربية مراكز للتنصير والتضليل". والأخطر من هذا عند الزاهري: "...أن نرى السلطة تشترك في المآدب، والحفلات التي يقيمها هؤلاء المضللون كلما فتحوا في هذا البلد الإسلامي مركزا للتنصير، والتضليل، وهذا معناه أن هذه السلطة -وهي علمانية -تحمي هؤلاء المضلّلين، وتساعدهم في الاستيلاء على عقائد المسلمين.."[52].

ب- تدريس أولاد المسلمين مجانا:

من الوسائل أيضا تحصين الأولاد بالعلم النافع، وتحمّل كل غالٍ، ورخيصٍ في سبيل تعليمهم، قال الزاهري: "ولقد جربنا هذه الوسيلة في الإصلاحية فقبلنا عددا من البنين، والبنات مجانا، ووزعنا عليهم، وعليهن الأقلام، والألواح السوداء، وأشياء أخرى تلزمهم، وتلزمهن للقراءة مجانا أيضا، زيادة عن كون الإصلاحية قد شملت برعايتها، وإحسانها عددا

(51) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 7.

(52) الزاهري محمد السعيد، الموقف السياسي الحاضر، مجلة الشهاب، الجزء 9، العدد :140، 12 ديسمبر 1931، ص: 793.

من اليتامى، واليتيمات؛ تعلمهم، وتزكيهم، وتكسو بعضهم لوجه الله، فنجت التجربة نجاحا باهرا، وأقبل علينا الناس بأبنائهم وبناتهم إقبالا منقطع النظير، حتى أولئك الذين هم أشد الناس عداوة لمشروعنا؛ فقد جاءونا بأطفالهم"[53]. ولاشك أنَّ إقبال أولاد المسلمين على المدارس الإصلاحية يجنّبهم الانضمام إلى المدارس الفرنسية، وبالتالي يقطع الطريق على دعاة التبشير، الذين يدسُّون السُّمَّ في العسل، ويقي النشأ من براثن التنصير.

ج- نقد السلطة الحاكمة:

وهذه وسيلة أخرى اتخذها رواد الإصلاح لدفع باطل المنصِّرين على أساس أنَّ الدولة لائكية لا تتدخل في أديان الناس، فقال الزاهري: "والحكومة أيضا وهي حكومة لائكية، تحمل هي الأخرى على عاتقها من مسئولية هذا الأمر نصيبا موفورا، فهي لم تقم بواجبها من كفالة الأطفال المسلمين ورعايتهم فكانوا ضحايا البؤس والحاجة، وأصبحوا فريسة للمبشرين....إن فرنسا العلمانية لم تعترض على دعاة النصرانية؛ إذ قاموا يشنون الغارة على ديننا، ويختطفون أطفالنا،ويختلسون منهم ما في قلوبهم من عقيدة وإيمان، أفليس من العدالة والإنصاف أن تتركنا أحرارا في الدفاع عن ديننا، وفي حماية عقائدنا، وعقائد أطفالنا من عادية المعتدين؟ "[54].

د- كشف الشبهات:

وهذه وسيلة أخرى قائمة على العلم، ومجابهة الدليل بالدليل، وقد كان للشيخ الزاهري -رحمه الله- النصيب الأوفر في رد شبهات المنصرين، قال -رحمه الله-: "يقول خصم الإسلام: إن أهالي الجزائر -ولا سيما أهالي زواوة- كانوا نصارى قبل أن يكونوا مسلمين، ويزعمون أنهم لا يخلصون الود لفرنسا إلا إذا عادوا نصارى كما كانوا. ولهذا يطلبون من الحكومة أن تساعد الآباء البيض على تنصير من في هذه الأرض من المسلمين جميعا. ونحن نقول:

- إنَّ هذه الدعوى باطلة يردها الواقع الذي أثبت أن هؤلاء المسلمين قد قاتلوا مع فرنسا، وأظهروا لها الإخلاص في كل المواقف، ولم يمنعهم إسلامهم أن يخلصوا لها المودة، على حين إن الألمان المسيحيين قد قاتلوا فرنسا، ولم تمنعهم مسيحيتهم من أن يناصبوها العداوة والبغضاء، ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين ما زالوا يعيشون مع فرنسا في أحوال استثنائية تحكمهم بالقرارات، والمناشير، وليس بالشرائع والقوانين...[55]،

- إنه من الخير لفرنسا أن يبقى هذا الشعب عربيا، مسلما، يقاسمها السراء والضراء،

---

(53) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(54) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 7.

(55) المرجع نفسه.

وليس من الخير لها أن يترك الإسلام، ويعتبر مسيحيا لا يرضيه منها شيء، على أن هذه الغاية المسيحية التي يسعى إليها المبشرون هي غاية بعيدة جدا ؛ لا يمكن أن تنالها أيديهم، فهذه الأمة العربية المسلمة ؛ إن لم تستيقظ اليوم فلا بد أن تستيقظ غدا، ويومئذ تعرف ما هي الوسائل والتدابير التي تتخذها لدرء أخطار التبشير، والمبشرين الذين لا يعملون إلا للاستيلاء على الضعاف ولإغراء القاصرين"[56].

هـ- بيان أخطار التبشير:

كتب الشيخ الزاهري مقالا في جريدة **"الشريعة"** وهي لسان حال علماء الجمعية ما يلي: عِبرٌ لمن يعتبر روح الإنجيل غذاء لروح البربر ... ! من مجلة (المغرب الكاثوليكي)

"إن البرابرة قريبون من الإنجيل، وأساطير الإنجيل التي تفيض بحياة الرجل، تصف حياة شبيهة بحياتهم، وأمثال الأناجيل تشبه كثيرا من أمثالهم، وإن حياتنا الخلقية الفرنسية قد كيفتها وصبغتها المسيحية - أي: أحسن ما في الإنجيل- فلم لا يكون الإنجيل إذن هو مركز الاتصال الذي تلتقي فيه الروح البربرية والروح الفرنسية، اللتان تنشد إحداهما الأخرى ... !". فتيان البربر أبناء جنس لطيف! -تنصير العرب بعد البربر- الأب (شارل دوفوكو) إمام من أئمة الكاثولوكية، وداعية خطير من دعاة الاستعمار الفرنسي، وقد خصص له كتابا الأكاديمي الشهير (**روني بازان**) شرح فيه شخصية الأب فوكو بصفته رحالة من رحالي الصحراء، ويحدثنا عن هذه الشخصية (**هنري بوردو**) الكاتب الفرنسي الذي احتفلت به مصر في الأيام الأخيرة ... فيذكر لنا رحلته في المغرب، وأنه أدى لفرنسا أعظم خدمة بما حمله من هذه الرحلة من وثائق عن المغرب وبالخريطة، العظيمة إذ ذاك، التي رسم فيها جميع الجهات المغربية، ويقول: أنه لولا خريطة (الأب فوكو) ووثائقه عن المغرب، التي قدمها للحكومة الفرنسية لكان احتلال فرنسا للمغرب من الصعوبة بمكان! (وهنري بوردو) يقاربه (بالكولونيل بوتان) الذي أرسله نابليون إلى إفريقيا ليخطط رسما تحضيريا لفتح الجزائر. هذا الأب الذي يقدسه رجال الاستعمار الفرنسي، ويحفظون له مكانا بين فاتحي المغرب ... قد وضع مبدأ آخر لإعداد فتح جديد، وخلاصة هذا المبدأ مجملة في كلمته الآتية: "إن الفتيان البرابرة أبناء جنس لطيف، وهم مستعدون لقبول الروح (اللاتينية) التي انتموا إليها في العصور الخالية ... إن البرابرة ليسوا متعصبين ولا جاحدين، وإن دخولهم في المسيحية هو الذي يعيد العرب ويدخلهم إليها مكرهين... رجل كهذا شارك في فتح المغرب العسكري وأعد الوسائل لفتحه الديني، ألا تخلد ذكراه بين المغاربة وفوق الأرض المغربية...؟ بلى إنه جدير بالخلود، ومن يستخلد ذكراه؟ يخلدها صديقه ليوطي الذي اشتغل معه في عين الصفراء على الحدود المغربية الجزائرية، والذي أصبح حاكما فرنسيا في المغرب... ففي 30 ديسمبر 1922 دشن اليوطي النصب التذكاري، الذي أقامه للأب فوكو في الدار البيضاء؛

(56) المرجع نفسه.

أعني المدينة التي منها دخلت الجيوش الفرنسية الفاتحة، فهدمت أسوارها وأثخنت في المغاربة رميا بالرصاص وضربا بالسيوف، وقد جعل تذكاره في لوحة من **المرمر** بالحديقة التي يطلق عليها الفرنسيون حديقة ليوطي[57].

الحاصل أنَّ رواد الفكر الإصلاحي في منطقة الزيبان تصدوا لهذا المنكر العظيم، ولاقوا في سبيله كل بلاء ومشقة، قال الشيخ محمد السعيد الزاهري رحمه الله: "كل هذه الصعوبات كنا نحتملها، ونستعين عليها بالصبر الجميل، لو لم يقم في وجه الإصلاحية ما هو أدهى وأمر؛ أعني هذه المنافسة القاسية الشديدة التي تقوم بها مراكز التنصير، وجمعيات التبشير المسيحي التي تبذل جهودا عظيمة، وتقوم بأعمال كثيرة بين الأوساط الإسلامية ، فقد عرفت مكان الضعف من هؤلاء المسلمين"[58].

و- انتقاده لشيوخ الطرق الصوفية المتآمرين مع دعاة التنصير:

يتَّهم الشيخ الزاهري الطرقية بوصفهم متآمرين، ومتعاونين مع دعاة التنصير، بل يرى أنَّ الفضل في نجاح المنصِّرين يعود لدعم الطرقية لهم، فأنكر -رحمه الله- زواج أحمد التجاني بأورلي بيكار بمباركة من الكاردينال لافيجري، وقد رأى هذا الكاردينال خدمة للتبشير المسيحي بالجزائر، وتم عقد النكاح على الطريقة الفرنسية في الكنيسة سنة: 1870م، ويكون بذلك التجاني أول جزائري مسلم تزوج بمسيحية أجنبية، وبعد وفاة الشيخ أحمد التجاني تزوجت هذه المرأة بأخيه، وخليفته من بعده[59]. وفعلاً؛ فقد ساهمت هذه السيدة الفرنسية في دعم التنصير، خاصةً وأنَّ الزاوية كان لها نفوذٌ كبير، فتدعَّموا ماليا، ومعنويًّا، وسهَّل لهم مريدوا الزاوية نشاطهم في كلِّ مكانٍ تحت نفوذهم.

ثم هو يعيب على شيوخ الطرقية ويحمِّلهم مسؤولية هذه الهجمة التنصيرية بقوله: "إنَّ الأغنياء من أشياخ الطرق الصوفية الذين جمعوا من فقراء المسلمين -باسم الصدقات، والنُّذور، والزيارات- أموالاً طائلةً بدعوى أنهم سيصرفونها في أوجه البرِّ، وفي خير الإسلام والمسلمين، ثم أسرفوا على أنفسهم، وأنفقوها في الأهواء والشهوات، وبذلوها هباتٍ، وهدايا إلى من لا يستحقِّونها، ولم ينفقوا منها في سبيل الله، هم المسؤولون على الخصوص أمام الله عن هذا المصاب الذي حلَّ بالإسلام في هذه البلاد؛ لأنَّهم -من حيث يشعرون، أو من حيث لا يشعرون- يعاونون المبشِّرين على تنصير فقرائنا وضعفائنا، فلو أنهم آمنوا، واتَّقوا، وأنفقوا هذه الصدقات، والنذور، والأموال في أوجه الخير التي جُمعت لها؛ من إنشاء الملاجئ

---

(57) الزاهري محمد السعيد، أخطار التبشير، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد: 3، يوم الإثنين 8 ربيع الثاني 1352هـ/31 جويلية 1933م، ص: 6.

(58) الزاهري محمد السعيد، الإصلاحية بين نارين، مرجع سابق، ص: 3.

(59) ينظر: الزاهري محمد السعيد، إلى زيارة سيدي عابد!، مجلة الصراط، العدد: 6، يوم الاثنين 4 رجب 1352هـ الموافق لـ 23 أكتوبر 1933م، ص: 5-6.

للضعفاء والمعوزين، ومن فتح المدارس، والكتاتيب يتعلَّم فيها الأطفال المسلون أمور دينهم، ولم يأكلوا هذه الأموال بغير حقِّها؛ لما أمكن للمبشِّرين -بحالٍ من الأحوال- أن يظفروا بتنصير هذا العدد الكثير من المسلمين"[60].

ز- محاربة الفرنسة والتغريب اللذين هما طريقا التنصير:

لقد أيقن الشيخ -رحمه الله- أن الفرنسة والتغريب يؤديان إلى الإدماج، والقضاء على الهوية الإسلامية الجزائرية، وهما أيسر سبيل لردة الجزائريين، خاصةً منهم الشباب، فراح يحذِّر منهما، ويكشف عوارهما، فقال -رحمه الله-: "وهؤلاء المستعمرون يعمدون إلى كل مكرمة من مكارم الجزائر المسلمة فيمسخونها مسخا، ولا يزالون بها حتى يخرجونها نقيصة ؛ يحطّون بها من كرامة الجزائر، وعار يعيبون به آبائنا الجزائريين"[61].

وتساءل -رحمه الله- فقال بأننا: "إذا تركنا ديننا ونبذناه ظهريا وانسلخنا من عوائدنا، وأخلاقنا أنكرنا كل صلة تربطنا بآبائنا الأولين، ثم تهافتنا على هذه الحضارة الغربية، فتفرنجنا، واندمجنا، وأسرفنا في التفرنج والاندماج، حتى **يغمر التفرنج** والاندماج منا كل شيء، وحتى لا تكون علينا سمة من سمات الإسلام، وحتى لا يبقى عندنا ما يصح أن نتسمى به **مسلمين**، فهل نكون يومئذ بعدما خرجنا من ذاتيتنا ومسخنا عن أنفسنا، وقد تمدنا وترقينا؟؟ ... والجواب أننا لا محالة نصير إلى الموت، والاضمحلال وبئس المصير"[62]. كما يرى الشيخ الزاهري أن تعليم البنات في المدارس الفرنسية وبال على المجتمع الجزائري؛ حيث إنَّ البنات الجزائريات اللاتي يتعلمن في المدارس الفرنسية لا يتعلمن إلا التمرد والعصيان، ويرى خطر هذا التعليم الزاهري أيضا، من زاوية أخرى، وهي زاوية التفرنس وتأثيره على البيت المسلم، وهذا التفرنس يؤدي لا محالة إلى خطر الإدماج، والقضاء على الهوية الوطنية، وحتى المغاربية، وذلك بالقضاء على اللغة العربية من اللسان الأم، أو المربية، لذلك يزداد الخطر أكثر إذا أرسلت البنات لمثل هاته المدارس[63]. ومن مآثر الإنكار والاحتساب للشيخ الزاهري نقده لجمعيات الإلحاد، وقصته مع أحد مندوبي جمعيات الإلحاد، ومناوأة الأديان، ونقده له مشهورةٌ، فقد دار نقاشٌ حادٌّ بينهما؛ حيث قال الملحد: "وإنه ليسرنا أن نرى اليوم رجال الشرق الإسلامي يخرجون من الإسلام، ويرقون إلى مصاف الملاحدة، الذين هم الطبقة المستنيرة المفكرة في كل عصور التاريخ"[64].

وقد عمد هذا الملحد، وانتقد الصلاة، والصوم، والحج....ورمى المسلمين

---

(60) الزاهري محمد السعيد، ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتنقون النصرانية الكاثوليكية، مرجع سابق، ص: 7.

(61) الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 26.

(62) نفسه، ص: 44.

(63) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 126-127.

(64) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 110-111.

بالجمود...ودعا إلى التمتع بالحضارة الغربية اللامعة، وتكلم عن التجديد، وتمنّى أن ينتصر السفور على الحجاب، ودعا إلى تحرير المرأة. وكان الزاهري من بين الحضور، فانبرى له، ورد مفترياته، ودحض شبهاته وهي[65]:

- **نسبة القرآن إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم:** حيث أرجع الزاهري هذه الفرية إلى الاستعمار الذي يزعم أن القرآن من عمل الرسول **صلّى الله عليه وسلّم** لا من عند الله ؛ لكي يهوّن من قيمة هذا الكتاب العظيم، ويزعم أن محمدا كان يعرف القراءة، والكتابة، ويدرس الكتب القديمة؛ لكي يصحّ أن يكون هو الذي عمل القرآن، وهي نفسها شبهة المشركين، تلقفها عنهم هؤلاء الملاحدة ؛ فصاروا يلوكونها، ويذيعونها في أوساط الشباب المتفرنجة. ثم أفاض الزاهري في فضل القرآن ومعجزاته، ثم طلب من الحاضرين أن يقرؤوا القرآن بأنفسهم؛ لكي يتيقنوا أنه من لدن حكيم حميد.

- **أمّية الرسول صلّى الله عليه وسلّم:** وردت في القرآن والسنة ما يدل على أمّية الرسول، وجاء وصفه بها في الكتب السماوية، وأقر بها القساوسة والرهبان[66].

واستطاع الزاهري أن يفحم هذه الشبهة بجدالٍ علميٍّ رصينٍ، يدل على ثقافته الواسعة[67].

وللوقوف في وجه هؤلاء الأعداء يقترح الزاهري، تأسيس معهدٍ إسلاميٍّ يزوّد الشباب الجزائري المسلم- وخاصة ذوي الثقافة الفرنسية - بالمعلومات الكافية، ويعرفهم بتعاليم دينهم ؛ لكي يكونوا نصرة له بأقلامهم، وألسنتهم [68]. كما كان يحثُّ الشباب أن يتعلموا الإسلام من أفواه أهله، لا من أفواه المستشرقين،وكتاباتهم، ففي رأيه أن أدنى المسلمين علما بالإسلام، وبالمسلمين خيرٌ من هؤلاء جميعاً[69]. ولم يُغفل الشيخ الزاهري الحديث عن التغريب وأدعيائه، وقد تعمَّق في الرَّد عليهم، ومقاومتهم، وبيان خطر الاستلاب الثقافي الحاصل لشباب الأمَّة، ولعل سبب ذلك هو ارتباطه المباشر ببعض هؤلاء التغريبيين في الجزائر، وكذا قربه من ساحات المعارك ضدّ هذه الفئات، لذا نجده يشنّع على هؤلاء ويفضحهم قائلا: "قرأتْ بالفرنسية، وتربت تربية غير إسلامية، حتى أنها لا تعرف الإسلام، ولا رجال الإسلام المشهورين؛ إلا من طريق اللغة الفرنسية، وأنت تعلم ما كتبه أئمة هذه اللغة –الفرنسية- من الهزؤ بالأديان، وبرجال الأديان، فنشأت هذه الفئة من شباب الجزائر لا تعرف الإسلام، ولا تحترمه، ولا تعرف التاريخ الإسلامي، ولا تعتزّ به ؛ بل لا تعرف تاريخ

(65) المرجع السابق، ص: 39.

(66) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 40.

(67) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 83-84.

(68) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 118.

(69) المرجع السابق، ص :44.

الجزائر، ولا تاريخ أسلافها في الجزائر"[70].

وقد سفَّه الزاهري هذه الفئة، وحذَّر من دعوتها الرّامية إلى ترك حضارة آبائهم المسلمين، والارتماء في أحضان حضارة الغرب اللامعة، معتبرا أن من يفعل ذلك كمن "لم يعجبه أبوه الذي ولده فيتركه، ويتخذ لنفسه أبا آخر لامعا جميلا" ثم يضيف متسائلا: هل يستطيع أحد "أن يخرج عن الطبيعة ؛ فيرضى بأبيه بديلا، أو قل فيرضى أن يكون ابنا لا أب له، فالذين يدعوننا إلى ترك حضارة آبائنا، إنما يدعوننا إلى أن نعلن على الملإ أننا ما لنا من آباء"[71].

وهذا الجواب لا يشكُّ في صدقه من عِلِمَ وخَبَرَ تاريخ الجزائر الحديث، فالاستعمار الفرنسي الذي استخدم في تحقيق أطماعه التوسعية سلاحين؛ سلاح الغزو المادي الذي تمثل في الإبادة الجماعية، وسلاح الغزو الأدبي، ووسيلته سموم المدنية الغربية، وهذه الوسيلة لم تكن أقل فتكاً من سابقتها، فهذا الاستعمار الذي أدرك بمكْرِهِ أن نفوس الجزائريين الثائرة؛ لن يكبح جماحها إلا إذا خدّرت أعصابها بأحدث ما أنتجته مخابر أوربا من جراثيم المسخ"[72].

وبعدُ؛ فإنَّ الشيخ الزاهري -رحمه الله- قد عرف عنه دفاعه عن الإسلام، وأهله من هجمات أعدائه، فكان صوته عاليا، وقلمه مشهّرا في وجه دعاة التنصير، والتغريب، ومن كان يسعى لسلخ أبناء الشعب الجزائري من هويته الإسلامية، والعربية، ومن عاونهم من أرباب الطرقية، وكانت إسهاماته الإصلاحية ترتكز على التصدي للغزو الثقافي بكلّ أشكاله، كما وقف في وجه المبشرين، والتغريبيين، ودعاة الفرنسة، وقفةً يخلِّدها التاريخ، وتكتب على صفحاته بماء العين، وأكرم بها من حسنة، وأيّ حسنةٍ تحسب لهذا الرجل.

4. خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبإحسانه تُستفتح العبرُ، والفوائدُ، والعظات، وبفضله تنتهي الكتابات، وتشرق النِّهايات، وأصلي وأسلم على سيِّد البشرية، وخير البريَّة، الذي أخرج اللهُ به عبادَه من ظلمات الجهل إلى نور اليقين، ومن ذلِّ الشِّرك إلى عزَّة العبودية، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نخلص من خلال هذا البحث إلى أهم نتائجه:

- لم تختلف ترجمة الشيخ محمد السعيد الزاهري -رحمه الله- كثيراً عن تراجم أهل الإصلاح، وأرباب الفكر والثقافة الجزائريين إبَّان الاحتلال الفرنسي، فقد نشأ في أسرة علمية، وثقافية، وتلقّى تعليمه الأولي بمدراس وكتاتيب قريته (ليانة) ببسكرة، فحفظ

(70) المرجع السابق، ص: 25.

(71) ينظر: الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية، مرجع سابق، ص: 46.

(72) ينظر: بلعجال أحمد، مرجع سابق، ص: 132.

القرآن في صغره، وتلقى مبادئ العلوم بها على أشياخه هناك، مرورا بالتحاقه بالمدرسة الباديسية بقسنطينة، ثم انتقاله للمرحلة التونسية الزيتونية، والتي تعدُّ أهم محطَّة في حياته، أين أخذ منطلقات فكره الإصلاحي الشمولي والوحدوي، بسبب أخذه عن أستاذة وعلماء الزيتونة، واحتكاكه بشخصيات فكرية وأدبية مختلفة، هناك حيث بدأت شخصيته الصحفية في السقل والنبوغ، ليعود إلى أرض الوطن، متنقلاً بين مدنه، مشاركاً في مهامٍ إصلاحية مع سائر إخوانه من علماء الإصلاح في جمعية العلماء المسلمين، في هذه المرحلة ظهر جليا نشاطه الصحفي، وذلك من خلال إنشاءه لجملة من الصحف والمجلات، ومشاركة في غيرها، وقد جند قلمه ونذر وقته وحياته لخدمة دينه ووطنه، في مجلات السياسة والأدب والاقتصاد وعلوم الاجتماع، سواء من خلال الكتابة والشعر، أو الانضمام للجمعيات والأحزاب، أو المساهمة في مجالات التربية، والتعليم، فنتج عن نشاطه هذا مقالات عديدة ومتنوعة، ومؤلفات مطبوعة أخرى غير مطبوعة، ومساهمات سياسية، واجتماعية كبيرة، ليرحل هذا الرائد المصلح مقتولاً غيلة يوم 21 ماي 1956م.

- لقد كانت الحركة الإصلاحية بمنطقة الزيبان؛ كغيرها من الحركات الإصلاحية المحلية- داخل الحركة الإصلاحية الوطنية الكلّية- معبرةً عن معارضة للسياسة الاستعمارية التي حاربت الشخصية الجزائرية،ومقوماتها اللغوية، والدينية، والتاريخية، وزادت رسوخا بفضل وجود نخبة جزائرية قادت النهضة الحديثة اعتمادا على النهضة الشاملة، وفي هذا الصدد تظهر جهود الشيخ محمد السعيد الزاهري في التصدي ومواجهة التنصير، وذلك من خلال التنديد بالتبشير على صفحات مجلات جمعية العلماء المسلمين، وتدريس أولاد المسلمين مجَّانًا قصد صرفهم عن مراكز التعليم الفرنسية، وكشف شبهات المنصِّرين، وبيان أخطار التبشير على الإنسان الجزائري، وانتقاده لشيوخ الطرق الصوفية المتآمرين مع دعاة التنصير، ومحاربة الفرنسة والتغريب.

وفي ختام هذه الخلاصة نوصي بما يلي:

- ضرورة الاهتمامِ بالفكر الإصلاحي في العالم الإسلامي عموما، ودراسةِ التراث الإسلامي الجزائري، وكلِّ ما من شأنه أن يبيّن الصورة الحقيقية المشرقة للإسلام.

- حثُّ الباحثين والدراسين في مجال الدعوة، والفكر الإسلامي على دراسة الشخصيات الإسلامية العلمية، ودراسة منهجها وجهودها في مواجهة التيارات الدخيلة، والتَّصدِّي لمعالم التنصير، ومظاهر سلخ الأمة الإسلامية من ثوابتها الدينية، وطمس هويتها، حيث تعطي الباحثَ دافعًا في السير على ما سارت عليه تلك الشخصيات.

- محاولة التوسُّع في دراسة سيرته وآثاره، وذلك بالتركيز على الجوانب العلمية التي لم تتطرق لها الدراسات العلمية عن الشيخ محمد السعيد الزاهري، والتي تدخل في مختلف مجالات الإصلاح.

- ضرورةُ بعث تراث الشيخ -رحمه الله-، والاهتمام بِطباعة ونشرِ مؤلَّفاته، والبحث عن

مخطوطات مؤلفاته، ولو تصدى الباحثون لوضع مجموعٍ كاملٍ لجميع ما كتبه الشيخ - أسوة بسائر رواد الإصلاح- فإنَّ ذلك سيعمِّم الفائدة، وتكون خدمةً جليلةً للعلم والتراث في بلدنا، وذلك من خلال المؤسَّسات الثقافية والعلمية التي لها اهتمامٌ بمثل هذا الإرث العلمي والفكري.

هذا، ونرجو أن نكون قد وُفِّقنا للصَّواب فيما بذلناه واجتهدنا فيه، ولا ننسبُ ذلك لجهدنا وحِذقنا، بل هو محض توفيق الله تعالى، وتسديده، وعونه، وتيسيره، وإن كان غير ذلك فنرجو الله العفو، والمجاوزة، والسِّتر والمغفرة، وأن ينفعنا، وينفع بنا، وأن يصلح حالنا، وحال أمَّتِنا، ويختم بالصَّالحات أعمالنا، ويهدينا إلى سواء السَّبيل، وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد لله ربِّ العالمين.

5. قائمة المراجع

*** المؤلفات:**

- الإبراهيمي محمد البشير، الآثار، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:1، 1997م.
- ابن باديس عبد الحميد، الآثار، المحقق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط:1، 1388هـ-1968م.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ط : خ، 2007م.
- بن نعمان أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1981م.
- تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية: 1931-1956م ، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ط:1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1975م.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط: خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2007م.
- تشايجي عبد الرحمن، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، تر: علي اعزازي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ليبيا، د.ط، .198م.
- حباسي شاوش، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر :1830-1082م، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، د.ت.
- حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط:1، د.ت.
- الخرفي صالح، محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1986م.

داود عمر، الحركة التبشيرية في الجزائر -نشاط الآباء والأخوات البيض في غرداية أنموذجاً-، دار نزهة الألباب، الجزائر، د.ط، .201م.

- الزاهري محمد السعيد، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، دار الكتب، الجزائر، د.ط، د.ت.
- الزبيري العربي، المثقفون الجزائريون والثورة، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، د.ط، 1995م.
- السنوسي محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، منشورات السائحي، الجزائر، ط:2، 1428هـ-2007م.
- صيد عبد الحليم، معجم أعلام بسكرة، دار النعمان، الجزائر، د.ط، 2014 م.
- عيساوي أحمد، جهود الشيخ العربي التبسي وآثاره الإصلاحية، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث، الجزائر، ط:1، سنة: 2013م.
- مصمودي فوزي، تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة وإقليمها من 1900 إلى 1954م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2006م.

- ناصر محمد، المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها، تطورها، أعلامها :من 1903م إلى 1931م، : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط:1، 1398هـ-1978م.

*** الأطروحات:**

- بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830-1871م)، الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى ال 45 لعيد الاستقلال و الشباب،ط: خ، 1428هـ-2007م.
- بلعجال أحمد، (2005- 2006م)، الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد السعيد الزاهري، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري -قسنطينة، الجزائر.
- دومة أحمد، (1434هـ-2013م)، التنصير في الجزائر وتاريخه وأساليبه وسبل مواجهته، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
- رحمون نعيمة وحرش حدة، أساليب ووسائل التنصير المعاصرة (الجزائر أنموذجا)، مذكرة ليسانس في مقارنة الأديان.
- طبيش عبد الكريم، (2006- 2007م)، أدب المقاومة عند محمد السعيد الزاهري من خلال جريدة "البرق"، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر.
- كحكاح يمينة، الحركة الإصلاحية في منطقة الزيبان "الشيخ محمد السعيد الزاهري" أنموذجا 1900-1956م، رسالة ماستر، شعبة التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2013م- 2014م،جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر.
- مرجاني عبد القادر، السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م، أطروحة دكتوراه، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،2019-2020م، جامعة الجيلالي اليابس - سيدي بلعباس، الجزائر.
- مزيان سعيدي، النشاط التبشيري للكاردينال لافيجري في الجزائر:1867-1892م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ الحديث والمعاصر، 1998-1999م،جامعة الجزائر، الجزائر.

*** المقالات:**

- بومديني محمد، محمد السعيد الزاهري ودوره الإصلاحي، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، م :5، ع :10، جوان2017 م.
- الجناحي الحبيب، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر، مجلة الأصالة، العدد: 16، الجزائر، 1974م.

*** الجرائد:**

- جريدة البصائر، العدد: 6، يوم الجمعة 13 ذي القعدة 1354هـ/7 فيفري 1936م.
- مجلة الشهاب، المجلد3، العدد: 133، 10 شعبان 1346هـ/ 2 فيفري 1928م.
- جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد 3، يوم الاثنين 8 ربيع الثاني 1352هـ/31 جويلية 1933م.
- مجلة الصراط، العدد: 6، يوم الاثنين 4 رجب 1352هـ الموافق لـ 23 أكتوبر 1933م.
- جريدة المنتقد. الجزائر، العدد: 5، الخميس 11 محرم 1344هـ/ 30 جويلية 1925م.